الفصل الأول

تقوية النفس البشرية

(الشكل رقم 2)

نظراً لأن تحقيق مصالح العباد ورفع الضرر عنهم تُعد أحد أهداف كليّات الشريعة الخمسة، فإن من اللازم بيان كيفية تحقيقه. ولهذا الغرض لا بد من تحديد حاجيات البشر الضرورية التي ينبغي تحقيقها، ليس فقط لرفع مستوى تنميتهم وفلاحهم واستدامتهما، وإنما لتمكينهم أيضاً من أداء دور استخلافهم على الأرض بفاعلية. وهذه الحاجيات، التي يمكن الاصطلاح عليها بالحاجيات التابعة للهدف الأساسي المتمثل تحقيق مصالح العباد وفع الضرر عنهم، وردت الإشارة إليها على نحو صريح أو ضمني في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وفصلها الفقهاء في اجتهاداتهم. وقد يتيح ضمان إشباع هذه الحاجيات رفع المستوى الأخلاقي والبدني والعقلي، وتعزيز القدرات التقنية للأجيال الحاضرة والقادمة، ومن ثم يضمن استدامة الفلاح.

= والمال، والنسب، والدين، والعقل. وقد وضع النسب في مكان النسل. والنسل كما استخدمه الغزالي والشاطبي معاً يعني كامل الجيل القادم، ومن ثم يحمل معنى أكثر شمولاً من النسب، لذا فهو الأفضل.

الكرامة واحترام الذات والأخوة والمساواة الاجتماعية

تشكل الكرامة واحترام الذات والأخوة الإنسانية والمساواة الاجتماعية جانباً مهماً من هذه الحاجيات (الشكل 2). والمنظور الإسلامي للعالم يتناول هذا الجانب من خلال التصريح بأن الطبيعة الإنسانية الأصلية (الفطرة) سليمة وخالية من أي عيب روحي ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الرُّوم: 30]، و﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التِّين: 4] ما لم تتعرض للإفساد[15]. ومن واجب البشر الحفاظ على طبيعتهم الحقيقية أي سلامتهم الأصيلة (الفطرة). إضافة إلى ذلك فإن الخالق رب هذا الكون قد خصّ البشر بالكرامة والشرف، بغض النظر عن العرق واللون والجنس والعمر، إذ يقول القرآن الكريم صراحة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسرَاء: 70]. ويتمثل هذا التشريف للبشر بجعلهم خلفاء الله سبحانه وتعالى على الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: 30]. وأي شرف للبشر أكبر من جعلهم خلفاء للخالق الأعظم نفسه؟. وبما أن البشر كافة خلفاء لله سبحانه وتعالى ينبغي أن يكونوا متساوين جميعاً وإخوة لبعضهم البعض. ومن ثم لا بد أن يكون هنالك تعايش سلمي فيما بينهم، مع قدر كبير من قبول الآخر والاهتمام المتبادل، وذلك لتعزيز الفلاح الإنساني الشامل من خلال الاستخدام الكفء والأمثل لجميع الموارد التي استأمنهم عليها

(15) انظر القرطبي (ت 463هـ/ 1070م)، 1952، ج14، ص24-31. وانظر أيضاً ابن عاشور، 2001م، ص261 - 266.

الخالق سبحانه وتعالى ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقِعَة: 7]. كما أن البيئة، بما فيها الحيوانات والطيور والحشرات، أمانة أيضاً، ولا بد من حمايتها لضمان عدم إحداث أي ضرر للأجيال الحالية أو القادمة.

ولذلك فإن الإسلام لا يعتبر أن البشر "ولدوا مذنبين"، حيث إن مفهوم الفرد "المذنب بالولادة" مفهوم ينتقص من الكرامة البشرية وغريب عن المنظور الإسلامي للعالم. فلماذا يخلق الله سبحانه وتعالى شخصاً يولد مذنباً ويدينه بهذا الشكل الأبدي دون ذنب اقترفه؟. وفكرة "الخطيئة الأصيلة" توحي بأن اقتراف الذنب قابل للانتقال عبر الأجيال وأن كل فرد يأتي إلى هذا العالم محملاً بذنوب الآخرين وخطاياهم. وإذا كان هنالك "منقذ" سيأتي لتخليص الإنسان من هذا الذنب الأصيل الذي لم يقترفه، فلماذا يأتي في زمن متأخر وليس منذ ظهور أول إنسان على الأرض؟ وإذا كان الإنسان قد ولد مذنباً، فلماذا يُسأل عن أعماله؟

ولذلك فإن مفهوم "الخطيئة الأصيلة" يناقض تماماً تأكيد القرآن الكريم صراحة مسؤولية الفرد عن جميع أعماله؛

- ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعَام: 164]؛

- ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرَاء: 15]؛

- ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فَاطِر: 18]؛

- ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزُّمَر: 7]؛

- ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النَّجْم: 38]؛

كما يناقض أيضاً صفتي الله سبحانه وتعالى، الرحمن الرحيم، اللتين يرددهما المسلم في معظم أوقات حياته. ولا يُعقل أن يجعل الله سبحانه وتعالى الفرد يولد مذنباً وهو، سبحانه، الودود والغفور وله كل ما يمكن تصوره من الصفات الحسنى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180]. وليس من المستغرب أن يرفض الكل، حتى العقلانيين (The Rationalists) والرومانطيقيين (The Romantics) في القرن التاسع عشر، فكرة تأصل الذنب في الطبيعة الإنسانية (الخطيئة الأصيلة)، تماماً كما رفضها جميع الفلاسفة المحدثين تقريباً.

وعلى نحو مماثل، فإن مفهومي الحتمية (Determinism) والوجودية (Existentialism) الذين ابتدعهما فلاسفة الغرب تحت تأثير الحركة التنويرية يناقضان أيضاً المفهوم الإسلامي. فالإسلام لا يقبل فكرة كون الحياة البشرية تحكمها قوى المادة كما عند ماركس (Marx)، أو البعد النفسي كما عند فرويد (Freud)، أو

الفطـرة كـما عند لـورينز (Lorenz)، أو البيئة كما عند بافلـــو وواتســون وإســكنر (Pavlov, Watson and Skinner)[16] وآخــرين. فالحتمية والمسؤولية البشرية فكرتان غير قابلتين للمواءمة، نظراً لأن الحتمية لا تنتقص فقط الكرامة الإنسانية وإنما تنفي أيضاً مسؤولية الإنسان عن الظروف الراهنة وعن الاستخدام غير الكفء وغير العادل للموارد[17].

(16) المسـائل المتعلقة بالحتمية والمسـؤولية ناقشها عدد من الكتاب في كـتاب حرره Sydney Hook بعـنوان Determinism and Freedom in the Age of Modern Science (1958) ويتألف من مجموعة من الأوراق لفلاسفة محدثين، كما نوقشت أيضاً في كتاب حرره Sydney Morgenbesser and James Walsh بعـنوان Free Will (1962) وهو يجمع بعناية مناقشات مختارة لكتاب قدماء ومحدثين وقد أُعد للطلاب على وجه الخصوص. وانظر أيضاً A. J. Alden, Free Action (1961) الذي يشتمل على تحليلات موسعة وعميقة لمجموعة من المفاهيم التي تركز حولها على الدوام الجدل حول الإرادة الحرة. وبالرغم من أن الكاتب لم يحاول إثبات الإرادة البشرية الحرة مباشرة، إلا أنه هاجم الأسس الخاصة بنظريات حتمية معينة تحظى بقبول واسع.

(17) انظر أيضاً: Chapra, 1992, pp. 202 - 206.

الشكل رقم (2)

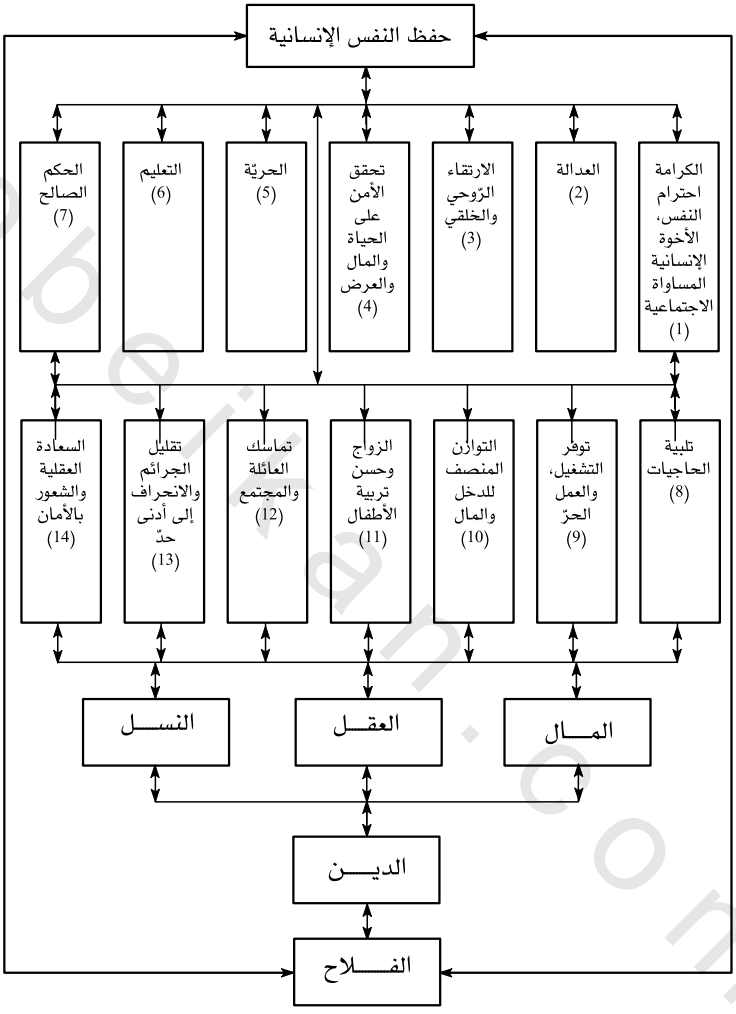

obeikan.com

ووجودية سارتر التي تشكل النهاية القصوى المقابلة لنظرية الحتمية غير مقبولة لدى الإسلام أيضاً[18]. فالبشر عند سارتر محكوم عليهم بالحرية، ولا حدود لحريتهم سوى كونهم غير أحرار في التخلي عنها[19]. وكل سمة من سمات الحياة العقلية للإنسان ناتجة عن قصد واختيار وتترتب عليها مسؤولية. وهذا بلا شك يشكل تحسناً في منظور الحتمية. غير أن سارتر يعتبر هذه الحرية مطلقة، وكل شيء مسموح به، وليس ثمة معنى نهائي أو غرض للحياة البشرية، أو أية قيم عُلوية أو موضوعية تم وضعها للبشر، أو قوانين إلهية، أو صيغ أفلاطونية (Platonic Forms)، أو أي شيء آخر. أما البشر فهم يائسون ومتروكون في الدنيا ليضطلعوا بشؤونهم كاملة. ويرى سارتر أن الأساس الوحيد للقيم هو الحرية الإنسانية، ولا يمكن أن يكون هنالك مسوغ خارجي أو موضوعي للقيم التي يختار أي فرد تبنيها[20]. وبناء على ذلك لا يمكن وجود سبيل للاتفاق على قيم مشتركة أو فرض ضوابط على الحرية الفردية لإيجاد التواؤم بين المصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعية، أو للوصول إلى تخصيص للموارد أكثر كفاءة وعدلاً، إلا عبر آليات قوى السوق التلقائية. ومثل هذا

---

(18) أنظر: Jean-pall Sartre, Being and Nothingness ترجمة Hazel Barnes (1957).
وانظر كذلك: Stevenson (1974), pp. 78 - 90 وأيضاً: Anthony Manser, Sartre: A Philosophic Study (1966)

(19) Sartre (1957), pp. 439 and 615.

(20) المرجع السابق، ص38.

المفهوم المبني على الحرية المطلقة لا يفضي إلا إلى أفكار مثل إطلاق الحرية (Laissez-faire) والحيادية القيمية (Value Neutrality). وبينما الحرية لا غنى عنها لكل فرد، فإن فلاح الجميع لا غنى عنه أيضاً ولا يمكن التساهل بشأنه. ولذلك فلابد من فرض بعض القيود المتفق عليها اجتماعياً على الأفراد لضمان عدم تعديهم على حقوق الآخرين وإعاقة فلاحهم. وهنا يبرز السؤال عن الجهة التي تضع تلك الحدود. وسنناقش هذا السؤال تحت البند الخامس من حاجيات الشخصية الإنسانية.

العدل

يشكل العدل المصلحة الشخصية الإنسانية الثانية[21]. ذلك لأن أهداف الكرامة الإنسانية واحترام الذات والأخوة والمساواة الاجتماعية وتحقيق المصالح العامة تبقى مفاهيم جوفاء ولا معنى لها إذا لم تستند إلى العدالة الاجتماعية والاقتصادية. لذا فقد جعل القرآن الكريم العدل هو الأقرب للتقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المَائدة: 8] من حيث أهميتها للعقيدة الإسلامية. والتقوى بلا شك هي الأهم نظراً لكونها تشكل المنطلق لكل

(21) أثبتت الدراسات التطبيقية بصورة راسخة أن ارتفاع مستوى الالتزام والنشاط الديني مرتبط بالصحة العقلية وقلة التوتر وزيادة نسبة الرضاء الحياتي

(Ellison, 1991 and 1993; and Iannaccone1998).

أفعال الخير، بما فيها العدل. ومن ثم أصبحت إقامة العدل تمثل المهمة الأساسية لكل الرسل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25]. وقد أكد القرآن الكريم بجلاء عدم إمكانية وجود الأمن في غياب العدل، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82][22]. وغياب العدل لا يؤدي في آخر المطاف إلا إلى البؤس والدمار ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: 111]. وقد أدان الرسول ﷺ الظلم بصورة واضحة، وساوى بينه وبين "الظلمات في يوم القيامة"[23]. وظلمات يوم القيامة ليست سوى انعكاس لما نقترفه نحن من ظلمات في هذه الدنيا عن طريق الظلم. وهذه الظلمات كفيلة بإحباط كل الجهود

---

(22) يشير سياق هذه الآية إلى الظلم في حق الله سبحانه وتعالى من خلال الكفر والشرك به، كما بين تلك الحقيقة المفسرون مثل القرطبي (ت 671هـ/ 1272م) وابن كثير (ت 744هـ/ 1375م). ومهما يكن، فإن تأكيد القرآن الكريم والسنة المطهرة الشديد لأهمية إتاحة العدالة لكل فرد وكل شيء توحي بإمكانية توسيع مضمون هذه الآية الكريمة لتشمل جميع البشر ومخلوقات الله سبحانه وتعالى الأخرى. وقد ذهب إلى هذا عدد من فقهاء المعتزلة بناء على ما ذكره فخر الدين الرازي (ت 606هـ/ 1209م) في تفسيره لهذه الآية في "التفسير الكبير"، ج7، صفحة 60.

(23) صحيح مسلم، ج 4، ص1996: 56 كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، عن جابر بن عبد الله. وقد استخدم النبي ﷺ كلمة الظلمات في هذا الحديث. والظلمات هي جمع ظلمة وترمز إلى =

الرامية إلى تحقيق الأمن والتنمية المستدامة والتضامن الاجتماعي، وجديرة بأن تؤدي في النهاية إلى عدم الرضاء والتوترات والصراعات والانهيار. وبناء على ذلك فإن الظلم والإسلام على طرفي نقيض ولا يستقيم شأن أحدهما ما لم يُستأصل الآخر من جذوره، أو يُضعف تأثيره. والظلم مصطلح إسلامي شامل يعني جميع صيغ عدم المساواة والغبن والاستغلال والظلم والخطأ التي يُلحق من خلالها الفرد الضرر بالآخرين، أو يحرمهم حقوقهم ولا يفي بالتزاماته نحوهم[24].

وهذا التركيز من جانب القرآن الكريم والسنة المطهرة معاً على الظلم انعكس على جميع كتابات العلماء المسلمين القدماء. فعلى سبيل المثال يرى الماوردي (ت 450هـ/ 1058م) أن العدل الشامل "يدعو إلى الإلفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان. . . وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق، من الجور"[25]. كما يقول ابن تيمية (ت 728هـ/ 1328م): "كان العدل أمراً واجباً في كل شيء وعلى كل أحد، والظلم محرم في كل شيء ولكل أحد، فلا يحل ظلم أحد أصلاً، سواء كان مسلماً

= عدة طبقات من الظلام تؤدي في النهاية إلى درجة من الظلام المطلق، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: 40].

(24) انظر: Chapra (1985), pp. 27 -28

(25) الماوردي، أدب الدنيا والدين (1955م، ص125).

أو كافراً أو كان ظالماً"[26]. وقد أيد ابن تيمية المقولة المأثورة السائدة في زمنه بأن "الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"[27]. أما ابن خلدون (ت 808هـ/ 1406م) فقد ذكر صراحة أن "الظلم مُخَرِّبٌ للعمران"[28].

وقد لا يتسنى، على أية حال، ضمان العدل دون المراعاة المخلصة لقواعد سلوكية معينة من قبل أفراد المجتمع كافة. وتسمى تلك القواعد القيم الأخلاقية في اصطلاح المنظور الديني للعالم، كما تسمى المؤسسات في اصطلاح الاقتصاد المؤسسي (Institutional Economics). ومن تلك القيم: الأمانة، والإنصاف، والانضباط، والوعي، واليقظة، والاعتماد على النفس، والتحمل، والتواضع، والتدبير، واحترام الوالدين والمعلمين وكبار السن، والعطف على الفقراء والمعاقين والمحرومين ورعايتهم، والاهتمام بحقوق الآخرين والتزاماتهم، ليس فقط في المجتمعات التي نعيش فيها، وإنما في جميع أنحاء العالم. ومراعاة هذه القيم بإخلاص تؤدي إلى الثقة المتبادلة والعلاقات الودية بين الناس وتشجعهم على أداء التزاماتهم ومساعدة بعضهم البعض، وهكذا تقوى أواصر التضامن الأسري والاجتماعي، وقبول الآخر والتعايش السلمي، وتتلاشى نزعات العداوة[29].

---

(26) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج 8، ص177. وانظر أيضاً كتابه "منهاج السنة"، 1986م، ج 5، ص127.

(27) ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، 1967، ص7.

(28) ابن خلدون، المقدمة، ص287.

(29) كل هذه القيم ورد تأكيدها في القرآن أو السنة أو فيهما معاً وتشكل =

وسيؤدي كل هذا إلى زيادة في رأس المال الاجتماعي تُعد ضرورية لزيادة الكفاءة والعدل، ومن ثم دفع مسيرة التنمية والفلاح الإنساني.

الارتقاء الروحي والأخلاقي

وبناء على ما تقدم فإن السموّ الروحي والارتقاء الأخلاقي هو المصلحة الشخصية الضرورية الثالثة في الإسلام إذا أردنا تحقيق المصالح للكل وتحقيق الرؤية الإسلامية. غير أن المراعاة المخلصة لكافة قواعد السلوك المبنية على القيم الأخلاقية السامية قد لا يتسنى بدون إيجاد نظام فاعل للتحفيز يقوم على أساس المنظور السليم للعالم الذي تحدثنا عنه تحت الهدف الرئيس الثاني لتقوية الدين.

حفظ النفس والمال والعرض

ويغطي المنظور الإسلامي للعالم والقيم المرتبطة به أيضاًالمصلحة الشخصية الرابعة في الإسلام وهي حفظ النفس والمال والعرض. فالقرآن الكريم يساوي بين قتل فرد واحد على غير وجه حق (بصرف النظر عن كونه مسلماً أو غير مسلم)، بقتل الناس جميعاً، وإنقاذ حياة فرد واحد بإنقاذ حياة الناس جميعاً ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ

= جزءاً لا ينفصل من المنظور الإسلامي للعالم، وكل من لا يراعيها لا يُعد مسلماً ملتزماً.

نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المَائدة: 32]. وليس هذا سوى أمر طبيعي لأن دعوة الإسلام إلى احترام الحياة والأخوة الإنسانية تصبح غير ذات معنى إذا لم يُعتبر إزهاق حياة غير المسلمين محرم كإزهاق حياة المسلمين. وقد ورد عن النبي ﷺ قوله في خطبته في حجة الوداع "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا"[30]. ولما كان الحاج يحظى بهذه الدرجة من القيمة في الإسلام، ينبغي أن تحظى نفس كل فرد وماله وعرضه بنفس القدر من الأهمية.

الحريـة

والمصلحة الخامسة من حاجيات النفس البشرية هي الحرية التي لا غنى عنها لتنمية الشخصية الإنسانية. وبدون الحرية قد يفقد الفرد نزعة المبادرة والدافع اللازم للابداع والابتكار، وبالتالي لا تتحقق التنمية أو الفلاح الإنساني. ولما كان البشر مستخلفين من قبل الله عز وجل على الأرض ينبغي ألا يتذللوا لغيره. ومن ثم فقد كان تحرير البشـــر من القـــيود والأغـلال

(30) رواه ابن كثير (ت 774هـ/ 1373م) في تفسيره للآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجرَات: 13]، (1981م) ج3، ص365.

التي كانت تكبلهم من أهم مهام الرسول ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]. وبناء على ذلك فإن الاستعباد من أي نوع، وبصرف النظر عن كونه اجتماعياً أو سياسياً أو اقتصادياً يُعد أمراً مناقضاً للتعاليم الإسلامية. وبالتالي فليس ثمة حق لأحد، حتى الدولة، في مصادرة الحرية وإخضاع الناس للعبودية والذل. ولعل هذا المبدأ هو الذي دفع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب إلى التساؤل بقوله "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!"[31].

ومهما يكن فإن كون البشر مستخلفين من قبل الله سبحانه وتعالى على الأرض لا يعني أنهم أحرار على نحو مطلق كما في وجودية سارتر. ذلك لأن حرية البشر مقيدة بالقيم الأخلاقية، ليس فقط لضمان فلاحهم هم أنفسهم، وإنما لضمان فلاح جميع مخلوقات الله سبحانه وتعالى أيضاً. وحين أدرك الملائكة، عند خلق الله سبحانه وتعالى للإنسان، أن هذا المخلوق سيكون خليفة لله سبحانه وتعالى على الأرض ويحظى بحرية المبادرة بالتصرف أبدوا تخوفاً من أن تقوده تلك الحرية إلى الفساد في الأرض وإراقة الدماء ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟

(31) علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، أخبار عمر، 1959م، ص268.

أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 30] .ولربما كان ذلك التخوف من جانب الملائكة ناشئاً عن عدم إدراكهم حينها أن الله سبحانه وتعالى سيزود البشر، إلى جانب الحرية، بثلاث هبات أخرى ستعينهم على التمتع بحياة كريمة، على خلاف ما تخوف منه الملائكة. وأولى هذه الهبات هي ضمائرهم التي تعكس طبيعتهم الحقيقية (الفطرة) التي خُلقوا عليها ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الرُّوم: 30]. وإذا لم تتم المحافظة على الفطرة سينحدر البشر "إلى أسفل سافلين" ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التِّين: 5]. ولمساعدة البشر لتجنب مثل هذا السقوط زود الله سبحانه وتعالى البشر بالهبة الثمينة الثانية وهي الهدى الذي بعث به، سبحانه وتعالى، إلى البشر والأمم كافة في عصور التاريخ المختلفة، وعن طريق سلسلة من الرسل. والغرض من هذا الهدى هو مساعدة البشر في إدارة شؤونهم في هذه الدنيا على نحو يعين على ضمان الفلاح للكل بما يتواءم ومبدأ خلافتهم لله سبحانه وتعالى على الأرض[32]. ولذلك فإن حرية البشر مقيدة

(32) ورد في القرآن الكريم بوضوح ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ [النّحل: 36]. وورد أيضاً ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۖ﴾ [غَافر: 78]، ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النِّسَاء: 164]. كما ورد في حديث للرسول ﷺ رواه أبو ذر أن الله سبحانه وتعالى بعث مائة وأربعة وعشرين ألف رسول إلى هذه الدنيا في عهود مختلفة وإلى أمم مختلفة (انظر تفسير الآية 164 من سورة النساء في تفسير ابن كثير). ولا شك في أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يقر الإيمان بجميع رسل الله سبحانه وتعالى.

بالهدى الذي خصهم به الله سبحانه وتعالى. والهبة الثالثة هي العقل الذي وهبه الله سبحانه وتعالى للبشر. وإذا استخدم البشر عقولهم، في ضوء ما تمليه عليهم ضمائرهم الفطرية، وما خصهم به الله سبحانه وتعالى من هدى، سيمكنهم ذلك من استخدام حريتهم بحكمة لتحقيق الرؤية الإسلامية وعدم نشر الفساد أو سفك الدماء، وهما من أبشع الجرائم في النظام القيمي الإسلامي.

التعليم

وفي ضوء ما سبق ذكره ننتقل إلى المصلحة الإنسانية الشخصية السادسة وهي إثراء عقل الفرد من خلال التعليم الفائق الجودة .وينبغي أن يضطلع النظام التعليمي بدور مزدوج. فمن ناحية، ينبغي أن يُبصِّرُ أفراد المجتمع بالمنظور الإسلامي للعالم والقيم الأخلاقية الإسلامية ودور البشر كخلفاء لله سبحانه وتعالى على الأرض، ومن ناحية أخرى ينبغي أن يمكنهم، ليس فقط من أداء وظائفهم بكفاءة من خلال العمل بجد ونزاهة، وإنما من توسيع القاعدة المعرفية والتقنية لمجتمعاتهم أيضاً. وفي غياب الارتقاء الأخلاقي وتوسيع القاعدة المعرفية والتقنية قد لا يتسنى إثراء العقل وتمكينه من المشاركة بسخاء في أهداف تسريع التنمية واستدامتها. ومن هنا جاء التركيز الشديد من جانب القرآن الكريم والسنة المطهرة على التعليم كما سنبين ذلك في موضع لاحق عند مناقشة إثراء العقل، المقصد الأساسي الثالث من مقاصد الشريعة.

الحوكمة الرشيدة (Good Governance)

الحوكمة الرشيدة، كما سنرى عند الحديث عن العقيدة، هي المصلحة الإنسانية الشخصية السابعة التي لا غنى عنها. فبدون الاستقرار السياسي والحوكمة الرشيدة قد لا يتسنى إنفاذ القواعد السلوكية الخاصة بالمجتمع. وفي مثل هذه الحال قد تنتشر نزعة تجاوز القوانين وتتقوى عبر آليات التعزيز الذاتية[33]. وعندئذٍ يَعُمّ الفساد وعدم الكفاءة وعدم الاكتراث إلى إشباع حاجات الآخرين. ولذلك فقد ركز معظم فقهاء الإسلام عبر عهود التاريخ المختلفة على أهمية الحوكمة الرشيدة ومن هؤلاء الأئمة أبو يوسف، والماوردي، وابن تيمية، وابن خلدون. وساد الاعتقاد عموماً بأن غياب الحوكمة الرشيدة عبر عدة قرون مضت كان من الأسباب الرئيسة لانحدار الأمة الإسلامية[34].

القضاء على الفقر وإشباع الحاجات

من المنطقي أن يقود اهتمام الإسلام الفائق بالكرامة الإنسانية والعدل والأخوة إلى المصلحة الضرورية الثامنة وهي القضاء على الفقر وإشباع جميع الحاجات الإنسانية الأساسية. فالفقر يؤدي إلى عدم الكفاءة والعجز والاعتماد على الآخرين، بل أنه يكاد

---

(33) انظر: North, 1990, pp. 93 - 94.

(34) انظر الكتاب الجديد للمؤلف، بعنوان:
Muslim Civilization: The Causes of Decline and Need for Reform (2008).

يكون كفراً كما بين لنا النبي ﷺ[35]. ومن ثم فإن بقاء الفقر يناقض مَقصِد صون الكرامة الإنسانية السائد في التعاليم الإسلامية. ومهما يكن فقد لا يكون القضاء على الفقر ممكناً في غياب الاستخدام الأمثل والعادل للموارد المتاحة للجنس البشري. فكل هذه الموارد، كما بيَّنا سابقاً، أمانة من الله سبحانه وتعالى. وأحد شروط تلك الأمانة استخدامها بطريقة مسؤولة تفضي إلى إشباع حاجات الجميع.

ولذلك فقد حظي القضاء على الفقر وإشباع حاجات أفراد المجتمع جميعاً بموقع مرموق في الفقه الإسلامي والفكر الإسلامي عبر عهود التاريخ الإسلامي المختلفة. فقد أجمع الفقهاء على أن الاهتمام بالحاجات الأساسية للفقراء فرض كفاية على المجتمع الإسلامي[36]. وكما يرى الشاطبي فإن ذلك ما يبرر وجود المجتمع نفسه[37]. كما أن جميع الفقهاء المحدثين ومنهم مولانا المودودي، والإمام حسن البنا، وسيد قطب، ومصطفى السباعي، وأبو زهرة، وباقر الصدر، ومحمد المبارك، ويوسف القرضاوي، قد أجمعوا على ذلك.

ويقودنا ما سبق إلى التساؤل عما يشكل الحاجة التي اعتُبِر إشباعها أولوية فردية واجتماعية؟ وفي هذا الصدد، قسم الفقهاء

---

(35) رواه السيوطي (ت 911هـ/ 1505م) في جامعه الصغير عن أنس بن مالك وفق ما ذكر أبو نعيم في "الهداية" تحت كلمة "قاعدة"، ص89.

(36) انظر مثلاً: ابن حزم، ج6، ص156 و 725.

(37) الشاطبي، ج2، ص177 (فجعل الله الخلق خلائف في إقامة الضروريات العامة).

مصالح العباد إلى مستويات ثلاثة هي: الضروريات والحاجيات والتحسينيات. وهذه الحاجات كما عرفها الفقهاء تعني القضايا والأمور التي تتوقف عليها حياة الناس الدينية والدنيوية وتحقق مصالحهم وتدفع الضرر عنهم بحيث إذا فقدت اختلت الحياة في الدنيا وحلَّ العقاب في الآخرة[38]. وهذه المصالح لا تشمل الكماليات (Luxuries) التي يمكن تعريفها بأنها تعني السلع والخدمات التي تطلب لدافع تفاخري (Snob Appeal) ولا يترتب عليها اختلاف في الفلاح الإنساني الحقيقي. وقد اعتبر الفقهاء هذا النوع من السلع والخدمات التي تتخطى حدود الحاجة إسرافاً وانغماساً في هوى الذات، وعارضوا إشباعها بشدة[39].

---

(38) لتعريف هذه المصطلحات في المفهوم الفقهي انظر: الشاطبي، الموافقات، ج 2، ص8 - 12. وانظر:
Anas Zarqa, "Islamic Economics: An Approach to Human Welfare", in K. Ahmad, 1980, pp. 13 - 15.
وانظر أيضاً: الإمام حسن البنا، مجموع الرسائل (1989م)، ص268، وحديث الثلاثاء (1985م)، ص410، وكذلك:
Sayyid Abul A'la Mawdudi, Islam awr Jadid Ma'ashi Nazariyyat (1959), pp. 136 - 140.

(39) للوقوف على آيات تحريم الإسراف والتبذير انظر: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]؛ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ [الإسراء: 26-27]؛ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفُرقان: 67]. وقد نهى النبي ﷺ أيضا عن التبذير وحض على البساطة والتواضع كأسلوب للحياة. وأكد، عليه صلوات الله وسلامه، أن إهدار الموارد محرم، ليس فقط في أوقات الندرة، وإنما في أوقات =

ومهما يكن، ينبغي أن نعي أنه طالما حرم الإسلام الرهبانية وحياة نكران الذات والتنازل عن الدنيا ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ

= الوفرة أيضاً (التبريزي، المشكاة، 1966، المجلد الأول، ص427: 133)، وقال، ﷺ، "إن الله أوصى إلي إن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد من أحد" (سنن أبو داؤود، 1952م، ج2، ص572، عن عياض بن حمار)، كما قال: "لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء" (صحيح البخاري، ج7، ص182، وصحيح مسلم، 1955م، ج3، ص1651: 42). وقال أيضاً: "من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها (رواه الترمذي في كتاب الزهد وقال حديث حسن، تحفة الأحوذي، ج3، ص312 - 313، عن معاذ بن أنس الجهني). وقال "كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة" (السيوطي، الجامع الصغير، ج2، ص96، عن ابن عمر، ورواه أحمد في مسنده، والنسائي، وابن ماجة، وورد في مستدرك حكيم). وهكذا يرجح القرآن الكريم والسنة المطهرة نمط العيش البسيط، ويستنبط الفقهاء من كل ذلك أن الصلف والتباهي على الآخرين والزهو في الدنيا أمر محرم. (انظر كتاب الكسب للشيباني في السرخسي، كتاب المبسوط، ج 30، ص266 - 268).

الحاصل أنه يحرم على المرء فيما اكتسبه من الحلال، الإفساد والسرف والخيلاء والتفاخر والتكاثر، أما الإفساد فحرام لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [القَصَص: 77]، وأما السرف فحرام لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأنعَام: 141]، وقال الله جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ [الفُرقان: 67]، فذلك دليل على أن الإسراف تبذير وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسرَاء: 26] (المبسوط، ص266)، والمخيلة حرام والتفاخر والتكاثر حرام يعني أنه كما نهي عن الإسراف والتكثير من الطعام فذلك نهي عن ذلك في اللبس، والأصل فيه ما روي أن =

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: 27]، فيجب ألا يكون تصنيف السلع والخدمات في المجموعات الثلاث أعلاه فاقد المرونة. فالإسلام يدع الفرصة للفرد لإشباع جميع حاجاته (الضروريات والحاجيات معاً) وذلك من أجل زيادة كفاءته وفلاحه. ولذلك ينبغي أن يعكس تصنيف السلع والخدمات في هذه المجموعات الثروة ومستوى المعيشة العام للمجتمع المسلم المعني. ومن ثم يصبح منظور الحاجات عرضة للتغيير عبر الزمن مع التطور التقني وزيادة الثروة وارتفاع مستوى المعيشة. وفي واقع الأمر فإن عدة دول إسلامية أصبحت أكثر غنى اليوم وقادرة على بلوغ مستوى أفضل من حيث تحقيق الحاجات، مقارنة بما كان ممكناً في المجتمعات الإسلامية الماضية. إضافة إلى ذلك فإن الحاجات لا تبقى ثابتة مع مرور الزمن وتغير المكان. فثمة حاجات لم يشهد عهد النبي ﷺ مجرد وجودها، أصبحت تُعد من الضروريات في العصر الراهن. ووجود مثل هذه الحاجات ينبغي ألا يفضي إلى التفاخر وإحداث الفوارق الضخمة في مستوى المعيشة إلى الحد الذي يُضعف روابط الأخوة الإسلامية والتضامن الاجتماعي، كما لا ينبغي أيضاً أن يكون الهدف إيجاد تماثل في المجتمعات

= النبي ﷺ نهى عن الثوبين والمراد أن لا يلبس نهاية ما يكون من الحسن والجودة في الثياب على وجه يشار إليه بالأصابع فإن أحدهما يرجع إلى الإسراف والآخر يرجع إلى التقتير، وخير الأمور أوسطها (كتاب الكسب لمحمد بن الحسن الشيباني، المبسوط للسرخسي، ج 30، ص268).

الإسلامية يصل إلى درجة الرتابة والكآبة، إذ يمكن تحقيق البساطة في نمط الحياة دون إلحاق الضرر بالإبداع والتنوع.

فرص التوظيف والتوظف الذاتي

نظراً لأن التسول يحط من كرامة الفرد وهو ما نهى عنه الإسلام أيضاً[40]، فإن المصلحة الإنسانية التاسعة والضرورة البديهية للكرامة الإنسانية هي أن يتم إشباع الحاجات عبر مجهود الفرد نفسه. ومن ثم يصبح فرض عين على كل مسلم كسب عيشه وإعاشة نفسه وأسرته[41].

---

(40) نهى النبي ﷺ عن السؤال بقوله: "لا تسألوا الناس شيئاً"، أبو داود، 1952م، ج 1، ص382، عن عوف بن مالك، وقال ﷺ: "اليد العليا خير من اليد السفلى"، البخاري، ج2، ص133، عن عبد الله بن عمر. كما نهى النبي ﷺ عن منح الصدقة لغير ذوي الحاجة الحقيقية أو للأصحاء ذوي الأبدان السوية (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي)، أبو داود، 1952م، ج 1، ص379، والنسائي، 1964م، ج 5، ص74، وابن ماجة، 1952م، ج 1، ص1839: 589.
وخص النبي ﷺ كسب المرء لعيشه بمكانة رفيعة من الاحترام حيث قال: "من طلب الحلال استعفافاً عن المسألة وسعياً على أهله وتعطفاً على جاره لقي ربه تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر"، التبريزي، المشكاة، 1381هـ، ج 2، ص5207: 658، عن أبو هريرة، رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(41) يأمر القرآن الكريم المسلمين بأن ينتشروا في الأرض ويبتغوا من فضل الله إذا ما فرغوا من أداء صلاتهم ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجُمُعَة: 10]. كما قال الرسول ﷺ: "طلب الحلال واجب على كل مسلم" (السيوطي، الجامع الصغير، عن أنس بن مالك، ص54)، ومضى في تفصيل ذلك قائلاً: =

كما أمر النبي ﷺ المسلمين باكتساب المهارات في بعض المهن ليتمكنوا من كسب رزقهم على نحو محترم[42]. ولذلك فقد أكد الفقهاء أن عجز الفرد عن أداء واجبه الخاص بكسب رزقه بجهده يجعله عاجزاً عن صيانة صحته وكفاءته البدنية والعقلية، وعندئذٍ لا يقوى حتى على أداء واجباته التعبدية، ناهيك عن أداء التزاماته كخليفة لله سبحانه وتعالى على الأرض[43].

= "ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده" (سنن ابن ماجة، 1952م، ج 2، ص2138: 723، عن مقدام بن معديكرب). ووفقاً لهديه ﷺ فإن التوكل على الله لا يعني امتناع المسلم عن بذل أي جهد، حيث ينبغي على المسلم بذل ما في وسعه من جهد والتوكل على الله بعد ذلك لتوفيقه إلى أفضل النتائج. وإلى هذا يعود استياؤه ﷺ من الرجل الذي ترك ناقته مرسلة ظناً منه بأنها لن تضل لأن الله سبحانه وتعالى سيحفظها، فأمره النبي ﷺ بأن يعقل الناقة أولاً ثم يتوكل على الله.

وبين الخليفة عمر التعاليم الإسلامية المتعلقة بكسب الفرد لعيشه بنفسه.

قال عمر رضي الله عنه: "لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ولكن الله يرزق الناس بعضهم من بعض" (علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، أخبار عمر، ص268).

إن من يزعم أن حقيقة التوكل في تركه الكسب فهو مخالف للشريعة، وإليه أشار النبي ﷺ في قوله للسائل الذي قال أرسل ناقتي وأتوكل، فقال ﷺ: "لا، بل أعقلها وتوكل" (كتاب الكسب لمحمد بن الحسن الشيباني، المبسوط للسرخسي، ج 30، ص249).

(42) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "إن الله يحب المؤمن المحترف" (رواه الطبراني في الكبير والبيهقي، المنذري، ج2، ص524)

(43) الإشارة إلى قائمة كاملة لمراجع الفقهاء قد تفضي إلى إطالة غير عادية، غير أن القارئ قد يرغب في الرجوع إلى "كتاب الكسب" للشيباني =

ولذلك فإن من فروض الكفاية على المجتمع المسلم إدارة الاقتصاد على نحو يتيح لكل فرد فرصة مناسبة لكسب العيش الشريف بقدراته وجهده. وفي عالم اليوم أثبت التمويل الأصغر (Micro-finance) قدرته العظيمة الكامنة في مجال توسيع فرص التوظيف والتوظف الذاتي، ومن ثم ينبغي أن يحظى بأولوية متقدمة في الدول الإسلامية. ومهما يكن، سيبقى هنالك من لا يقدرون على كسب ما يكفي بجهدهم الخاص نتيجة لإعاقة أو ضعف في القدرة، الأمر الذي حدا بالإسلام إلى وضع برنامج اجتماعي للدعم الذاتي لمساعدة مثل هؤلاء عبر مؤسسات الزكاة والصدقات والأوقاف لإشباع حاجاتهم دون وصمة عار اجتماعية أو تظلم. وإذا لم يتسن حشد موارد كافية عن طريق هذه المؤسسات يصبح من واجب الدولة الاضطلاع بدور تكميلي.

التوزيع العادل للدخل والثروة

نهى القرآن عن أن تكون الثروة دُولةً بين الأغنياء فقط ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7]. ووفق هذه الرؤية الإسلامية فإن المصلحة

= في المبسوط للسرخسي، ج 30، ص344 - 387، خاصة الصفحات 245 و250 و256، وأبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 2، ص60 - 64، والشاطبي، الموافقات، ج 2، ص176 - 177، والعبادي (1974 - 1975م)، ج 2، ص22 - 25.

الإنسانية العاشرة هي التوزيع العادل للدخل والثروة، حيث إن التفاوت المفرط في الدخل والثروة يحط من كرامة من يعانون من الفقر الشديد ولا يقدرون على الاستغلال الكامل لطاقاتهم الكامنة. وعدم وجود برنامج فاعل للحد من التفاوت في الدخل والثروة كفيل بأن يضعف، بدلاً من أن يعزز، مشاعر الأخوة التي يسعى الإسلام إلى تكريسها. وعليه فإن الإسلام لا يستهدف فقط استئصال الفقر وإشباع حاجات كل فرد عن طريق الكسب الشريف بصفة أساسية، وإنما يؤكد أيضاً أهمية برنامج الدعم الاجتماعي الذاتي المتمثل في الزكاة والصدقات والأوقاف. ومهما يكن فإن من الخطأ الاعتماد بصفة أساسية على هذه المساهمات الخيرية لتحقيق هدف التوزيع العادل للدخل والثروة. كما أن من الضروري تسريع عملية التنمية كما سنتناول في موضع لاحق تحت عنوان الثروة، واستخدام كافة السبل الأخرى التي ثبتت جدواها حول العالم، إذا كانت ملائمة لأحكام الشريعة الإسلامية.

الزواج والحياة العائلية المستقرة

إن المصلحة الإنسانية والحاجة الطبيعية الحادية عشرة التي لا غنى عنها لكل عضو في المجتمع ذكراً كان أم أنثى هي الرفقة والشراكة في الحياة من خلال الزواج[44]. والغرض من الزواج

(44) يستخدم القرآن كلمة زوج وصاحبة للزوجة لبيان أن الزوجة شريك وصديق أو رفيق وليس شخص مستخدم أو تابع. وعلى ضوء ذلك =

ليس فقط إشباع الرغبة الجنسية، وإنما الحصول على شريك حياة مناسب يقاسم الطرف الآخر الوئام والعناية المتبادلة والمودة والرحمة. ويقول القرآن الكريم ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرُّوم: 21].

وعلى أية حال، فإن الحياة الزوجية ستمكِّن المرء من تحقيق هذا الهدف فقط إذا كان كلا الزوجين يتمتع بالخُلق الحسن[45]، ويهتم كلاهما بفلاح الآخر، ولديه الرغبة في تحمل ما ينطوي عليه ذلك من تضحية بالمصلحة الفردية[46]. ومثل هذه العلاقة المفعمة بالود والاهتمام بين الزوجين ستؤدي إلى إنشاء أسر مستقرة الأمر الذي يُعد ضرورياً ليس فقط لتوفير الحب والرعاية اللازمة لتنشئة الأجيال القادمة، وإنما لتطور واستمرار المجتمع نفسه.

= تعرِّف الأدبيات الفقهية الزواج بأن "عقد الزواج عقد ازدواج وهو ينبني على المساواة في الأصل" والمراد بالازدواج معنى المشاركة (السرخسي، المبسوط، ج 5، ص109). "إن الزوج والزوجة كالشريكين المتعاونين على المصالح" (القرافي، الذخيرة، ج 13، ص34).
هذه المراجع الفقهية اقترحها عليّ زميلي الدكتور/ سامي السويلم.

(45) قال النبي ﷺ: "إن من أخيركم أحسنكم خلقاً" (البخاري، ج 8، ص15، كتاب الآداب، باب لم يكن النبي فاحشاً ولا متفحشاً).

(46) بينت الدراسات التجريبية أن الالتزام الديني يؤدي إلى مستويات أدنى من الطلاق ومستوى أعلى من استقرار الحياة الزوجية:
(Innaccon, 1998; Lehrer and Cheswick, 1993; and Gruber, 2005).

ولتهيئة المناخ المفعم بالحب والرحمة والهدوء بين الزوجين، فقد بين القرآن الكريم حقوقاً للنساء تساوي حقوق الرجال ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 228]، وأمر الرجال بمعاملة النساء برفق وإنصاف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: 19]، والوفاء بالتزاماتهم تجاههن بلطف. وقد أكد النبي ﷺ مقتضى هذه الآيات القرآنية الكريمة وغيرها واصفاً النساء بأنهن "شقائق الرجال"[47]. وفي خطبته في حجة الوداع حث الرجال على اتقاء الله سبحانه وتعالى في معاملة النساء لأنهم أخذوهن "بأمان الله"[48]. وفي

(47) عن عائشة رضي الله تعالى عنها، عن البزار، عن أنس رضي الله تعالى عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: "إنما النساء شقائق الرجال" (الجامع الصغير للسيوطي، ج 1، ص102، رواه أحمد وأبو داود والترمذي).

(48) عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه، قال، قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: "فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله" (صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حج النبي ﷺ، ج 2، ص889 رقم 147)، (فإنكم أخذتموهن بأمان الله)، ابن ماجة، كتاب المناسك، وأبو داود، كتاب المناسك، باب صفة حج النبي ﷺ، ومسند أحمد.

مقام آخر حرّج، ﷺ، على الرجال من غصب حقوق النساء عن طريق استغلال ضعفهن[49]. كما نهاهم عن وأد بناتهم أو إهانتهن أو تفضيل أولادهم عليهن[50]. وقد رويت هذه الأحاديث الشريفة وغيرها على أنها صحيحة ولها دور تكميلي في توجيه الرجال وتعزيز الفلاح الإنساني. ولعل هذا ما دفع عمر، الخليفة الثاني (المتوفى في عام 23هـ/ 644م)، إلى القول: "كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً، فلما جاء الإسلام وذكرهن الله، رأينا لهن علينا حقاً"[51]. وليس ثمة سبب يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الخُلق الحسن والصلات الطيبة بين الزوجين وحظوة الأبناء بحب الوالدين معاً، أمور غير كفيلة بأن تؤدي إلى إشباع الحاجة الثانية عشرة للشخصية الإنسانية، وهي الأسرة والتضامن الاجتماعي.

الحد من وقوع الجريمة

يُنتظر أن يؤدي إشباع كل هذه الحاجات الإحدى عشرة التي سلف ذكرها إلى تهيئة بيئة ملائمة لتحقيق المصلحة الإنسانية الثالثة عشرة وهي الحد من وقوع الجرائم والعداءات.

---

(49) النص الصحيح للحديث "إني أحرج عليكم حق الضعيفين: اليتيم والمرأة" (رواه الحاكم، عن أبي هريرة، في مستدركه، ج 1، كتاب الإيمان، ص63)، وهذا الحديث صحيح وفق معايير مسلم.

(50) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال، قال رسول الله ﷺ: "من كانت له أنثى ولم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة"، رواه أبو داود والحاكم (المنذري، ج 3، ص86 رقم 29).

(51) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب ما كان النبي ﷺ يتجوز من اللبس والبسط، ج 4، ص281، رقم 735).

السلام العقلي والسعادة

إذا تم إشباع كل هذه الحاجات الثلاثة عشرة الأساسية، يحق لنا أن نتوقع تحقيق المصلحة الإنسانية الرابعة عشرة وهي السلام العقلي والسعادة. وينبغي أن يكون لتحقيق كل هذه المصالح مجتمعة أثر إيجابي ليس فقط على النفس والعقل والنسل والمال، وإنما على الدين أيضاً من خلال تهيئة بيئة أفضل لفهم الدين وتطبيقه. وسيتيح ذلك مجالاً أرحب لاستدامة التنمية في كل قطاعات المجتمع والاقتصاد والسياسة.

obeikan.com